الفصل
5

«شكروا الدب، ثم أكلوه»

منهاج متكامل مبني على أساس المكعبات

ربيكا بورديت Rebecca Burdet

تخدم هذه المدرسة الابتدائية الواقعة في الجزء الشماليّ الريفيّ من نيويورك 450 طالبًا تقريبًا. هناك أقل من 25% من الطلاب يتلقون وجبات غداء مجانية أو مخفضة السعر. كانت الدراسات المحددة المبينة في هذا الفصل جزءًا من وحدة دراسات اجتماعية لروضة أطفال أجريت على التنوع، دُرست التقاليد الثقافية والدينية طوال السنة. واستندت الأنشطة على المزيج الموجود في الصف، والمكون من التراث الصينيّ والإفريقيّ والمكسيكيّ والأمريكيّ والأوروبيّ.

كانت كيشا وإيلي وماغي Keisha, Ellie, Maggie يرسمن بالألوان المائية، وجرار الماء لديهن تلمع كالمجوهرات حول الطاولة السداسية الأضلاع والزوايا، مايغي واليزابيت وإيركا Mive, Elizabeth and Erica يعملن على عرض للدمى المتحركة حين كان عويل شخصياتهم وسقساقاتهم يعلو ليصل إلى منطقة الاجتماع، هنتر وأليكس وروبي Hunter, Alex, Robbie يتفرجون ويضحكون، هؤلاء الأولاد متمددون على بساطنا، ويبنون قناة مائلة معقدة من الرخام، كان هناك جدول مستمر من القطع الرخامية، يصلصل عبر انعطافات هيكل المتاهة. كانت كل من قطاعات منصة المزرعة والنزهة والمطعم تعج بالنشاط في الزاوية المخصصة للعب المثير. كان كل من توماس وكاشم وجيس Thomas, Kashim and Jess يرتدي مئزرًا، بينما كانت ناتلي Natalie تطالب باحتلال مكانها المعتاد كمديرة لكل ما يجري.

في يوم الأربعاء من شهر تشرين الثاني الذي وصف آنفًا، تكون غرفتي تعج بدندنة العمل الجميلة، إنه الصوت الذي يعطيني الإذن بأن أحفر إلى مكان أعمق في مركز واحد أو في مركز آخر، والآن حان الوقت المثاليّ لي لأن آخذ لوحي المشبكي وأذهب إلى منطقة المكعبات لأرى ما يحدث هناك.

منطقة المكعبات: مركز حياة غرفة الصف

تعد منطقة المكعبات لدينا ضخمة للغاية، فهي تشغل ربع غرفة الصف، وبها خمسة رفوف تضم عُدة الغرفة الصفية، ونصف المكعبات، والكثير من علب الكماليات، تحيط هذه الرفوف بمنطقة المكعبات، وبذلك تحمي أبنية الأطفال من حركة المشي في الغرفة الصفية، كان هناك شريط إخفاء يدل أيضًا على بنائنا المثلثيّ الشكل، وفي هذا المكان الآمن تعيش الأبنية مدة أسبوع بعد أن تكون قد أخذت شكلها مع مرور الزمن.

على مدى الأسابيع العشرة الأولى من المدرسة كان لدى نصف الصف فرصة للبناء في أثناء الأربعين دقيقة من الوقت المختار بعناية، في حين أن النصف الآخر كان بوسعه أن ينخرط في مشروعات: الفن، واللعب المثير، وألعاب السبورة، أو صنع قناة مائلة من الرخام على بساط غرفة الصف، هنا يُعلّم الأطفال كيفية استعمال المواد في كل منطقة، وكيفية التنظيف، وكيفية حل النزاعات الشخصية التي من المؤكد أنها ستنشأ في روضة أطفال نشطة وحافلة بالعمل، لا يوجد مكان ينطبق عليه هذا الوصف بصورة حقيقية أكثر من منطقة المكعبات، وهي مركز حياتنا الصفية.

في أول يوم دوام كامل في روضة الأطفال جلسنا سويًا في منطقة المكعبات، وناقشنا الخطوط الإرشادية، كما ركبنا بناء من المكعبات وفككناه سويًّا، أرسيت قواعد للتقيد بها في منطقة المكعبات وتجنب الخطوات غير الصحيحة التي تحدث أحيانًا. عينت طفلين كمديرين لمنطقة المكعبات، واللذين سيتأكدان أن المكعبات المفككة جميعها يجب أن تعاد إلى الرف الصحيح، وتعرض بصورة صحيحة، حيث تكون الواجهة الأكبر إلى الأمام حتى تكون أشكالها الخاصة واضحة للعيان، توضع بطاقات تعريفية بعناية على الرفوف تحتوي على نقاط موجزة عن المكعبات المناسبة، وبذلك تنتهي عملية التنظيف بسرعة وفعالية على مدى الأسابيع التي تلت تعلم الأطفال هذه القواعد والأعمال الروتينية، فلكل طفل خبرة البناء مدة أسبوع كامل في منطقة المكعبات.

لقد راقب كل طالب بناء المكعبات في صفه، وهو يتطور على مدى الأسبوع، ويتعلم أن يحترم عمل بناء المكعبات الذي يتم بعناية، والذي يبنيه الآخرون بالقرب منه، كما فحصت

الكماليات، وأرسيت خطوط إرشادية لاستعمالها، مثل (زَخرفٌ) (لا ترمِ)، إضافة إلى ذلك ابتكرت إشارات جديدة لأعمال النظافة، ولكن الأهم في ذلك أن كل طفل خضع لتجربة مرور أسبوع على البناء.

البيوت الطولانية الأولى

كان هناك شيء مختلف يحدث في هذا الأربعاء من شهر تشرين الثاني، فقد لاحظت أن يان زي وصوفي وآني Yan-zi, Sophie, Annie قد احتللن معظم مساحة منطقة المكعبات ببنائهن ثلاثة بيوت طولانية منفصلة، كان طاقمنا المؤلف من أناس يبنون المكعبات الخشبية يعيشون مع مجموعات عائلية، تتحلق كل واحدة منها حول نار الطهي في المنتصف. قالت لي يان زي Yan-zi بابتسامة عريضة: «انظري يا ربيكا... إنهم يتناولون عشاء الأخوات الثلاث».

في بادئ الأمر ظننت أن هناك ثلاث أخوات حول نار الطهي، ولكن حين نظرت عن كثب رأيت أنها وضعت قطعة خضار وبرتقالة ومكعبًا خشبيًّا أصفر اللون مباشرة في منتصف نار طهيها. قالت: «هناك ذرة و فاصولياء وقرع للعشاء»، أخبرت آني أن تحضر بمجموعتها إلى بيتها الطولاني، فبدت آني Annie الهادئة والخجولة مسرورة للحضور مباشرة. رتبت يان زي Yan – zi الأشكال الخشبية، ووضعتها حول النار، وأخذت تقول: «أعطني المزيد من القطع الخضراء وبعضًا من القطع الصفراء، إننا بحاجة إلى المزيد من الطعام»، أسرعت آني مهرولة إلى صندوق المكعبات الخشبية، وفتشته لتعثر على هذه الألوان. صاحت صوفي التي بنت أيضًا بيتًا طولانيًّا قائلة: «هل تستطيعين أن تأتي؟» أجابت يان زي قائلة: «نعم، ولكن اجلبوا معكم اليقطين».

شكلت الذرة والفاصولياء والقرع جزءًا كبيرًا من غرفتنا الصفية، وهذه المحاصيل زرعها في حديقة مدرستنا أطفال السنة الماضية في روضة الأطفال. في هذا الخريف لدينا محصول وافر جدًّا. يحب الأطفال أخذ دفاتر يومياتهم للعلوم معهم عند خروجهم إلى الحديقة، وقد شاركوا مع مجتمع المدرسة بكامله في مهرجان الحصاد، فقد أزالوا الخيوط من الفاصولياء، وقطفوا اليقطين، وجمعوا ساقات الذرة.

بالعودة إلى منطقة المكعبات نجد أن نوعًا مختلفًا من الولائم يقام هناك، كان بيت يان زي Yan-zi الطولاني يعج ببناء المكعبات الخشبية والمكعبات الخضراء والبرتقالية والصفراء، وقد نشب جدال حول جلب أنواع أخرى من الطعام. كانت صوفي متصلبة، وقالت: «إنها حيوانات أيضًا: دببة وأشياء»، رفضت يان زي أن تتزحزح عن موقفها، وقالت: «لكن ليس هنا في بيتي الطولاني، وليس هذه الليلة»، جمعت صوفي بناء المكعبات الخشبية وعادت إلى بيتها الطولانيّ.

صاحت ناتالي من منصة المزرعة في منطقة اللعب المثير قائلة: «يان زي، هل تتذكرين العمّ؟ لقد ذهب في رحلة لصيد الدببة في قصة ذلك الصبي»، أحب الأطفال قصة جوزيف بروشاك Joseph Bruchac **الصبي الذي عاش مع الدببة** **The Boy Who Lived with the Bears**، والتي قرأتها أنا بصوت عال مرات عديدة.

لكن يان زي لم تبدل موقفها، ولم تسمح بإدخال اللحم إلى بيتها الطولاني، بينما أصرت صوفي قائلة: «لقد اصطادوا كل شخص يحتاج إلى اللحم»، أجابت يان زي: «جماعتي لا يحتاجون»، وسرعان ما غادرت يان زي بعد ذلك بناءها وانضمت إلى طاولة الرسم، وفي غضون بضع دقائق غاصت في تركيز عميق، وظهرت حديقة من الألوان على ورقها، تابعت صوفي وآني عملهما في منطقة المكعبات، حيث أضفن كتلًا بألوان قوس قزح إلى البيوت الطولانية.

مشروع مجتمع صفي

حين نظرت في أرجاء الغرفة ورأيت مجموعات صغيرة من الأطفال وهم يبنون ويصنعون ويتعاونون، علمت أن اللحظة نضجت لتوسيع عمل المكعبات ودراستنا للناس الأصليين، لقد حان الوقت لإيجاد مشروع كتل صفيّ، فبعد شهرين ونصف من عمل البناء بحرية أسبوعيًّا بدا الأطفال مستعدين لشيء آخر.

كيف لي أن أعرف أن الأطفال مستعدون للتحدي الذي يفرضه مشروع مجتمعي كبير؟ وكما يحدث دائمًا، إذا دققنا بعناية فإن الأطفال يقولون لنا كل ما نحتاج معرفته، أسأل

نفسي: «هل الأطفال يقيمون صلات مع بعضهم بعضًا عن طريق أفكار عن المكعبات وعن طريق الأحاديث؟ هل لديهم المهارة في المناورة في منطقة المكعبات دون أن يزعج أحدهم الآخر في أثناء عملهم؟ هل يبتكرون ويتوسعون في استعمالهم الكتل؟ وهل هم تواقون إلى مواجهة التحديات مثل تركيب أبنية متعددة الطوابق تحتوي على درج يصل إلى المستويات العليا؟ هل أماكن البناء لديهم حيث تسرد القصص الساحرة وتظهر الشخصيات أماكن ناشئة؟ وأولًا وقبل كل شيء، هل يستعملون منطقة المكعبات مكانًا لتمثيل تفكيرهم عن العالم حولهم؟ فمثلًا، بدت يان زي في لعبها في المكعبات أنها تشك في ممارسات الصيد لقبائل الليناپي وسألت: «إذا كانوا يحبون الحيوانات كثيرًا فلماذا يقتلونها؟»، هذا إذًا هو النوع من التفكير واللعب الذي كنت أبحث عنه.

استرشدت بعملي بكتابات ريتشارد لوف Richard Louv مؤلف كتاب **آخر طفل في الغابة: إنقاذ أطفالنا من اضطراب ناتج عن عجز في الطبيعة** Last Child in the Woods: Saving Our Children from Nature_Deficit Disorder، وكذلك كتابات وليم كرين William Crain **استعادة الطفولة: إبقاء الأطفال أطفالًا في مجتمعنا المتجه نحو الإنجاز** Reclaiming Childhood: Letting Children Be Children in Our Achievement_Oriented 2003 Society، ينعي لوف وكرين كلاهما ضياع الوقت في الطبيعة، حيث كان الأطفال دائمًا يمارسون الاستكشاف والاكتشاف والتساؤل، ولأني استرشدت بهؤلاء المنظرين، فإنني كنت منذ مدة طويلة مبهورة بالمحادثة التي تحدث بين دراسات منطقة المحتوى في الدراسات الاجتماعية، والعلوم، واللعب المستمر، الذي يجري في منطقة المكعبات.

تعد دراسة قبائل الليناپي دراسة محلية، ومنهاجًا يستند إلى المكان، ويعتمد على ما يمكن مشاهدته والمرور به خارج نوافذ غرفة صفنا، لقد أنشأتها كطريقة لدمج دراسات الخريف الاجتماعية ووحدات العلوم، تجمع دراسة الليناپي موضوعات العلوم والدراسات الاجتماعية في الروضة مثل موضوعات المجتمع والتنوع الثقافي والأشياء الحية والجغرافيا.

استخدمت منطقة المكعبات مكانًا للاستقصاء واللعب بالأفكار الكبيرة للدراسة، تستجيب هذه الدراسة أيضًا للاهتمام الشديد عند صغار الأطفال في معرفة حال الأمور في الماضي البعيد بالنسبة إلى السكان الأصليين الذين عاشوا قريبين من الأرض والحيوانات،

تعد هذه الصلات بين: الدراسات الثقافية الأمريكية الأصلية، والحيوانات، والنباتات المحلية، وتركيب المكعبات، عناصر دائرية يرن صداها في آذان الأطفال الصغار.

قبل أسبوعين من ظهور البيوت الطولانية في منطقة المكعبات، وجدت نقطة الصلة الحاسمة بين منطقة المكعبات ودراساتنا الاجتماعية ومنهاج العلوم، وكما تذكر نتاشا أنه في أواخر تشرين الأول كنت قد قرأت لصفي كتاب جوزيف بروشاك **الصبي الذي عاش مع الدببة**، عززت هذه القراءة بصورة من كتاب بوبي كلمن Bobbie Kalman **الحياة في قرية ذات بيوت طولانية Life in a Longhouse Village**. انبهر الأطفال بفكرة العيش في الخارج قريبًا من الطبيعة، حدقوا في صور كتاب كلمن وتفكروا فيها وطلبوا سماع القصة مرارًا وتكرارًا. حين سألتهم: «هل تحبون العيش في بيت طولاني؟»، كان جوابهم بـ (نعم) مشددة متبوعة بأحاديث متدفقة.

(**الشكل 5.1**): كجزء من دراستهم تعلم الأطفال أن قبائل اللينابي عاشت في بيوت طولانية الشكل.

بناء البيوت الطولانية الكبيرة

وفي صباح الاثنين التالي وبعد أن فككت البيوت الطولانية التي بنتها كل من يان زي وآني وصوفي، سألت الأطفال إن كان يرغب أحد منهم في العمل سويًّا لبناء بيت طولانيّ كبير جدًّا في منطقة المكعبات، وعلى الفور تطوع ستة أو سبعة أولاد وبنات بشغف لينجزوا هذا

العمل، وكان طلبي الوحيد إليهم التأكد من أنهم سيغادرون الغرفة لممارسة اللعب المثير بين المستويين الاثنين للبيت الطولاني.

كان هؤلاء الأطفال قد شاهدوا صورًا للبيت الطولانيّ الذي بني في منطقة المكعبات العام الماضي، ونسخوا الهيكل الأساسي، حين زادت دهشتهم لاحظت أن مجموعتي المكونة من ستة أو سبعة بنائين قد توسعت إلى ثمانية عشر بناءً، وبنهاية الوقت المختار بعناية ارتفع البناء، لم يعرف طلابي أن هذا البناء سيعيش ويتطور مدة عشرة أسابيع (انظر الشكل 5.1).

بحلول شهر تشرين الثاني حين بدأ مشروع البيت الطولاني، كان الطلاب متمكنين جدًّا من قواعد استعمال منطقة المكعبات، لكن العمل على مشروع جماعيّ بهذا الحجم والنطاق يتطلب أنظمة وبروتوكولات مختلفة حين كان الأطفال يعملون وحدهم أو على صورة ثنائية من بنّاءين اثنين. لقد عمل كل منهم بصورة جماعية، فأفكار كل واحد منهم كانت محل تشارك وترحيب، بنى الأطفال أماكن النوم للمجموعات العائلية من دمى عرانيس الذرة، وأضافوا الأنهار والغابات إلى محيط منطقة المكعبات، كي تستطيع لعبهم الذهاب في رحلات صيد، كما أضافوا صخورًا وصدفًا للأنهار، ورسموا اللوحات الجدارية وأضفناها إلى منطقة المكعبات.

تناثر منهاجنا الأصلي في كل مكان، فتحت طاولة الرمل والماء التي عندنا، ووضعتها بجانب منطقة المكعبات وبدلت الرمل بالتربة، وزرع الأطفال الذرة والفاصولياء والقرع، مستخدمين قرون الوعل والصدف لتكوين أكوام لزراعة هذه (الشقيقات الثلاث) من المحاصيل مع بعضها بعضًا مثلما كانت تفعل قبائل اللينابي. أصبحت زاوية اللعب المثير كوخًا بيضاويّ الشكل، تعلوه شجيرات، ويكتمل بوجود دائرة نار حجرية (وهي حجارة جُمعت من الملعب ومجموعة من أضواء الأشجار الحمراء) وسلال من الذرة المجففة، وأرواب الفراء المزيفة، والجلود، وحجارة مسطحة لطحن الذرة.

جلب الأطفال معهم حيواناتهم المحشوة والتي خبأتها في الغرفة مجموعة من الأطفال، وبعد ذلك بحثت مجموعة أخرى عنها، وضعت هذه الحيوانات المحشوة بمرح في وعاء الحساء في منطقة اللعب المثير مع الذرة المجففة وبذور اليقطين التي أخذت من لعبة منصة المزرعة السابقة.

وجد الأطفال الكثير من الطرق لإدخال أفكارهم عن قبائل اللينابي إلى وقت الاختيار بعناية. حين تعلم الأطفال عن الزوارق الخشبية والزوارق الطويلة الضيقة الخفيفة المصنوعة من لحاء شجر البتولا والتي كانت تسير في أنهارنا، صنع الأطفال طيات من الورق وبنوا الزوارق، انتهت هذه الزوارق في منطقة المكعبات حيث كانت تسير على قطعة طويلة من القماش الأزرق.دمجتُ وحدة علوم الطيور المحلية والسمك والثدييات بدراسة قبائل اللينابي ومُلئت الغرفة بالموارد.

حدق الأطفال وفكروا مليًّا بدليل الطبيعة والنصوص الأخرى التي تحتوي على معطيات بهذا الصدد، وفي الحال حُوّلت وحدة المكعبات إلى غزال ودب لفرق الصيد، كما حُوّلت الكماليات إلى سمك وطعام، وأصبحت المكعبات الطويلة الرباعية أشجار صنوبر،وأشجارًا تتساقط أوراقها كل عام، وقد رتبت لتكوّن غابة وملئت أغصانها بالعصافير الجميلة.

صنع الدمى

بحلول شهر تشرين الثاني عادة ما يكون الأطفال في صفي قد اكتشفوا أن باستطاعتهم صنع اللباس لأشخاص المكعبات الخشبية، مستعملين ورق التركيب، وقصاصات من القماش، وغزل صوفي أو قطني، وهذا الأمر يشكل تقدمًا طبيعيًّا في لعب المكعبات، حيث المكان المتوفر لبناء جميل ينادي على من يؤدي هذا الدور بالدينامية نفسها. إن هناك فوائد كبيرة في صنع الناس بدلًا من شراء أشخاص كتلًا مسبقة الصنع، فالأطفال يستطيعون شخصنة دماهم، إضافة إلى ذلك يتعلم الأطفال عن النطاق المسموح به حين يستخدمون كتل الوحدة نقاط إرشاد على مقدار طول دماهم المصنوعة من المكعبات.

صنع الأطفال دمى من عرانيس الذرة لمجتمع البيوت الطولانية، وثمة طابع سريّ لهذه الدمى، التي كانت طويلة ومنتصبة في البيت الطولاني بعد أن ألصقت بمنصات من الخشب.

كان إلباس أشخاص اللينابي جزءًا من بحث أكبر عن سكان البيت الطولاني، حدق الأطفال مليًّا في نصوص المعطيات الخاصة بقبائل اللينابي وكذلك في أدلة الطبيعة ومصادر أخرى، واستخدموا اللباد والفرو المزيف والريش كي يلبسوا دُماهم المصنوعة من عرانيس الذرة.

على مدى الأسابيع الثلاثة قضى الأطفال معظم ساعات الوقت المختار بعناية في صنع الملابس، والأقواس، والسهام، والعقود، وكماليات أخرى لدُماهم، وبذلك أضافوا عمقًا للعب داخل منطقة المكعبات، جمعت مواد لإلباس دمى البيوت الطولانية، ودعوت الآباء والمعلمين ومتطوعين آخرين بالغين، للمساعدة في تجريب العقود المتناهية الصغر أو في قص شرائط من الجلد أو القماش. إن صناعة الدمى التي يتشارك فيها الأطفال والكبار طريقة جيدة لإيجاد صلات في أثناء اللعب، كما أن صناعة الدمى، التي تبدأ في المدرسة توجد -أحيانًا- حياة جديدة في البيت.

خلال مدة أواخر الخريف وضعت قرون الوعل وجماجم الحيوانات والريش على طاولة العلوم، وقام الأطفال باستخدامها لعملية الرسم القائمة على الملاحظات في دفاتر يومياتهم الخاصة بالعلوم. حضر مرشدون من محمية موهونك Mohonk Preserve، وهي منظمة بيئية محلية تعمل بالشراكة مع مدرستنا، حضروا لزيارة غرفة صفنا، وجلبوا معهم فراء الحيوان، والعظام، والأدوات، ورؤوس السهام، وأشياء أخرى من صنع الإنسان، وذلك ليعطونا معنًى واقعيًّا عن نمط حياة قبائل اللينابي التي عاشت قبل مدة طويلة في وادي هدسون Hudson.

كان الطلاب تواقين إلى أن يلمسوا ويمسدوا جلود القندس والدب والغزال المفرودة على بساطنا، ولاحظت أن يان زي تجلس منفردة، ويعلو وجهها نظرة حزينة، اقتربت منها وسألتها إن كانت هي أيضًا ترغب في لمس الفراء، قالت: «كلا، أشعر بالأسى تجاهها، لماذا كان عليها أن تموت؟»، شجعت يان زي على سؤال المرشد عن الحيوانات التي كانت جلودها موجودة هنا، فشرح المرشد أن هذه الجلود لحيوانات ماتت على الطريق، وأنه احتفظ بهذه الجلود لمساعدة الأطفال على معرفة الحيوانات التي كانت قبائل اللينابي تستعملها لتبقى على قيد الحياة، وبين المرشد أيضًا أن قبائل اللينابي كانت تستفيد من كل جزء من الحيوانات التي يصطادونها، رفع قرن وعل بيده وسأل الأطفال إن كان باستطاعتهم تخيل كيف كانت قبائل اللينابي تستخدم هذا القرن كأداة، قدم الأطفال إجابات بسهولة، فقال أحدهم: «إنه يشبه أداة ذات أسنان لجمع العشب»، وقال آخر:«إنه مِسعَر (أداة لإذكاء النار).. إنه حاد كالسكين»، بينما قال ثالث: «إنه يشبه السيف».

حيـن كنت أسـتمع إلى أصواتهم المفعمة بالانفعال سـجلت ملاحظـة ذهنية مفادها أن أضـع قـرون الوعـل في طاولـة الرمل والمـاء مع التربـة كي أدع الأطفـال يـؤدون عمليات زرع بسيطة هناك.

بينمـا كان الأطفـال يمسـدون الفراء، طلـب إليهم المرشـد أن يفكروا بالطقس البارد جـدًّا فـي الخـارج في هـذا اليوم العاصف من شـهر تشـرين الثاني، وكيف أن قبائـل الليـنابي ممتنة لأن تحصل على لباس دافئ مصنوع من هذه الحيوانات. انبهر الأطفال انبهارًا كبيرًا بمشـاهدتهم الرجـل الأمامية للغـزال المحتفظ بها، والعصب والعظم فـي داخلها، ومرورها برفـق إلـى الأطفـال الواقفين على صـورة دائرة. وحين وصلـت إلى مايف Maive اسـتعملتها كملعقـة تحريـك، وقالـت: «وبعدهـا سـيكون لدينا حسـاء غـزال في العشـاء»، ووسـط صراخ مجموعة الأطفال بيّن المرشـد أنه في الشـتاء الطويل والبارد في البيت الطولاني كان اللحم مادة ثمينة؛ فلم يكن هناك مخازن أو مطاعم حينها.

كان كريس Chris يعرف أن لحم الغزال لحم طرائد، وقال لزملائه في الصف بأن لديه الآن بعض هذا اللحم في الثلاجة، نظرت إلى يان زي التي كانت تتفحص رجل الغزال بتأمل وهي تمسـد الشـعر المخملي الأسود الضارب للصفرة والحافر الأسود اللامع. قالت: «هناك آثار غزال في الثلج عند بيتي»، وقال طلاب آخرون بأنهم شاهدوا آثار غزال في الوحل حول أوانـي علف الطيور خارج شـباكنا هنا في المدرسـة، هنا تسـاءلت إن كانـت هذه التجربة قد غيرت فهم يان زي أنه كان بوسع قبائل الليـنابي أن تبجل الحيوانات، وتعتمد عليها في البيئة التي كانت تعيش فيها.

لعـب القصة، كتابة القصص، قصص حقيقية مع الأطفال من عمر خمس وست سنوات

سميت كل دمية عرنوس ذرة بعناية، وكتب الأطفال –أو أملوا– سيرًا ذاتية تبين الجنس والعمـر والعمـل، وحالما حـدد المجتمع بهذه الطريقة ظهرت المجموعات العائلية، وأرسـيت أساسيات البيت، وبدأت خطوط القصة تبرز كنتيجة طبيعية للعب.

بيد أننا لم نندفع بسرعة إلى مرحلة بناء القصة، فالتجربة الحساسة كانت اللعب، ولكن ليس اللعب المنظم الذي يقوده الكبار، بل ذاك النوع من اللعب الحر الذي يحتاجه الأطفال في صفوف الطفولة المبكرة. توفر منطقة المكعبات بيئة ممتازة للعب الجذاب الذي يديره الأطفال، وبعد أسابيع طويلة من اللعب الجذاب جلست مع الأطفال، وطلبت إليهم أن يسردوا قصة، وهي عمل من فن النثر الواقعي، عن شيء لم يحدث وكان من الممكن أن يحدث.

إن معرفة اللحظة المناسبة لتتويج مشروع كبير أمر حساس، فبعد أسابيع من اللعب أخذ اهتمام بعض الأطفال يضعف، بينما زملاء صفهم الآخرون كانوا ما يزالون يتقدمون إلى الأمام بقوة دافعة. كان هذا الوقت المثالي لألتقط بعض اللعب الفني الذي كان يجري في منطقة المكعبات، فالقصة التي رواها الصف كانت ستلتقط بوسيلة مختلفة الكثير مما كان ينبض بالحياة في لعب الأطفال، وهذا ما كوّن معنىً مثاليًّا. كانت دمى عرانيس الذرة شخصيات رائعة تنعم بحياة غنية، لقد كان لدينا بيئة مثالية في منطقة كتل البيت الطولاني وغابات وأنهار محيطه. كل ما كنا بحاجة إليه الآن هو حبكة قصتنا.

جيك Jake أحد طلابي من جذور أمريكية أصلية، وكان لدى عائلته (عصى ناطقة) تقليدية، أتى بها جده إلينا -في يوم من الأيام- في وقت أوشكنا فيه أن نكتب قصتنا. تعجب الأطفال من عمل هذا الخرز المعقد، وعلموا من جد جيك Jake أن ريشة النسر المربوطة بالعصا بوساطة شريط جلدي كانت مقدسة بالنسبة إلى المواطنين الأصليين، استخدمنا هذه العصا الناطقة والتي مررناها من طفل إلى طفل حول الدائرة لنسجل القصة سطرًا سطرًا، سجلت كلماتهم كما نطقت بالضبط، ذلك أن تسجيل كلمات الأطفال بهذه الطريقة سمح للغتهم الغنية أن تلتقط، بغض النظر عن عدم قدرتهم على الكتابة.

أما بالنسبة إلى يان زي فقد كانت تعمل وتواجه الصعوبات في عملية صيد الحيوانات وقتلها في الثقافة الأصلية، وحين جاء دورها لإضافة قصة قالت ببساطة «لقد شكروا الدب، ثم أكلوه»، وبعدما انتقلت إلى منطقة المكعبات، وضعت دميتها التي صنعتها من وحي الحياة

الأصلية، حيث كان ذراعاها ممتدين ومرفوعين، وطلبت تبريكًا للحيوان الذي سيؤمن الحياة لبقية القبيلة. (انظر الشكل 5.2).

(**الشكل 5.2**): أوجدت يان زي مشهدًا تظهر فيه أشكال أفراد قبائل الليناني بأذرعهم المفتوحة وهم يطلبون تبريكًا للحيوان.

خلال أسابيع من عمل مجموعة يان زي الذي اشتمل على بناء بيوت طولانية، واللعب في زاوية اللعب المثير، وصنع دمية جميلة من عرنوس ذرة، تطورت يان زي، وأظهرت فهمًا جيدًا لترابط الحياة التي تشاركت بها قبائل الليناني وعالم الحيوان. إن الحيوانات التي عاشت إلى جانب قبائل الليناني في غابات منطقتنا وجبالها لم تكن موارد، بل كانت أعضاء في عائلة موسعة شملت (أخانا الشمس) و(جدتنا القمر) و(أمنا الأرض) والأشياء الحية جميعها، وكان لا بد من تقديم الشكر لها، وعندها فقط يمكن أن يتم أكلها كي تستمر الحياة.

كانت الخطوة التالية لي في مشروع قصتنا العمل مع كل طفل لأخذ صورة له تبين دوره الخاص في القصة، وعن طريق سحر القصص المزودة بصور فوتوغرافية مزجت كلمات الأطفال وصورهم الفوتوغرافية مع بعضها بعضًا. وعن طريق الموسيقى التي أضيفت وأتت

من أصوات الأطفال وآلات النفخ التقليدية الأمريكية الأصلية سُجّل فيلم رقمي جميل زودته أنا بسرد قصصي مني، إضافة إلى ذلك وضعت قصص المكعبات على الشبكة التي قدمتها المقاطعة كي يستمتع بها الآباء وأعضاء المجتمع الآخرين.

ولكي نتوج دراستنا على قبائل اللينابي أقمنا احتفالًا في الصف مع عائلاتنا. كانت دمى الأطفال المصنوعة من عرانيس الذرة تشكل الضيوف ذوي القيمة العالية على كل طاولة، صنع ولي أمر ناثان Nathan يخنة لحم الطرائد الشهيرة، وصنع الأطفال خبزًا من الذرة واليقطين، في حين ساهم آباء آخرون بأطباق الفاصولياء والقرع، لقد كانت وليمة لا تنسى حقًّا. طلب الأطفال رؤية القصة الرقمية مرارًا وتكرارًا، وخلال الستة أشهر التالية من المدرسة رأى كل زائر إلى مدرستنا تلك القصة الرقمية. بالرغم من أن عوالم جديدة قد صنعت لاحقًا في منطقة المكعبات، إلا أن عالم قبائل اللينابي قد وُثّقَ، وهو أول عالم صنعه الأطفال سويًّا وأشير إليه بطرق لا تحصى على مدى بقية أيام سنتهم في روضة الأطفال.

لعب المكعبات في روضة الأطفال

لا حدود للإمكانات الإبداعية في لعب المكعبات، فهذه المكعبات يمكن تنظيمها يدويًّا، وصبغها بصبغة الرياضيات والخصائص الجسدية التي تعلم دون توتر، ولا تحتاج إلى البراعة والقوة، إنها تفضي إلى تبادل العلاقات الاجتماعية في وقت تنمي فيه التعبير الشخصي. البناء المنتهي هو هيكل يطلب فيه التشارك مع الآخرين. هناك كثير من الكتابة المبتدئة مثل أول الحروف والكلمات والجمل نشأت حين تقول الإشارات والتي ترجمت من تهجئة مبتكرة (هذا بنائي) في نص بالخط الغامق جرى التأكيد عليه.

حين ينقل المدرسون تعلم منطقة المحتوى إلى منطقة المكعبات، تنشأ لغة جديدة للطلاب جميعهم داخل غرفة الصف، كان لمحادثة يان زي مع الآخرين ومع نفسها مكانة مثالية يتم تعميقها وتوسيعها، لقد لعبت بتفكيرها حتى جعلت هذا اللعب قفزة معرفية بسيطة، ولكنها منطقية وفتحت الباب لتعقيد أعمق لنفسها ولزملاء صفها.

إذا أردنا نحن، المعلمين، أن يمارس طلابنا التفكير المرن الديناميكي فلا بد لنا أن نوجد صفوفًا مصممة للابتكار والتجريب، تسهم في إيجاد مجتمع مفكرين ومبدعين، تواقين إلى حل عدد ضخم من المشكلات التي تواجهنا، وإذا كنا نصمم هذه الصفوف لمتعلمينا الصغار (وهم أطفال الخامسة والسادسة من العمر اللاعبين الرشيقين الأذكياء ومتعلمي اللغة والمتحمسين والمليئين بالدهشة) فعلينا أن نضمن وجود أشكال كي تؤثر وتؤدي إلى الإتقان. إن القصص التي يبتدعها أطفال رياض الأطفال في الأبنية التي يشيدونها تمثل بدايات العالم الجديد الذي سيسكنونه.

تعليقات المحررين

ما يظهر بقوة هو التزام ربيكا أن تجعل الدراسات الاجتماعية جوهر الحياة الصفية، وتقديرها العميق لثقافة قبائل الليناربي، خاصة في ما يتعلق بالمعاني التي ربطتها قبائل الليناربي ببيئتهم الطبيعية، لقد زودت البيئة -وهي البيئة المادية الموجودة خارج غرفة الصف نفسها- قبائل الليناربي بأسباب البقاء، وكانت تشكل نقطة محورية في ثقافتهم.

إن الأطفال في غرفة صفها قادرون على فهم هذا، كما أنهم قادرون على إجراء ربط بين حياة قبائل الليناربي وحياة عائلاتهم، يحدث هذا نتيجة مناقشاتهم وقراءة ربيكا للقصص لهم، والأشياء الطبيعية التي تحضر إلى غرفة الصف. يتوسع فهم الأطفال أكثر عن طريق بنائهم كتل هياكل قبائل الليناربي، وصناعتهم الدمى، واللعب التخيلي المثير، وسرد القصص، ويكرس الصف كثيرًا من الوقت لهذه الأنشطة التي تدمج الدراسات الاجتماعية والفنون والعلوم وتعلم القراءة والكتابة، ويضيف كل عنصر مستوى إضافيًّا لفهم الأطفال للقيم التي أعطت الحياة لمجتمع قبائل الليناربي ويحفز انخراط الأطفال بمحتوى عملية تعلمهم.

تعد هذه الدراسة أيضًا مصدرًا لإحساس الأطفال المتزايد بالإتقان والكفاءة والذي توّج في قصة الصورة الفوتوغرافية التي أبدعوها سويًّا.